

منبر المحراب

كيف نكون أحراراً

السنة الخامسة عشرة

العدد ٨٣٤ - جمادى الأول / ١٤٣٠ هـ

الموافق ١٩/أيار/٢٠٠٩ م

محاور الموضوع الرئيسية :

- ما هو مفهوم الحرية ؟

الهدف: التعرف إلى مفهوم الحرية

ومقوماتها في الإسلام، وكيف

يكون الإنسان حراً.

تصدير الموضوع: روي عن أمير

المؤمنين (عليه السلام): «لا تكن عبد

غيرك وقد جعلك الله حراً» (نهج

البلاغة، الخطبة ١٤٧).

١- مفهوم الحرية: يقصد بالحرية قدرة

الإنسان على فعل الشيء أو تركه

بإرادته الذاتية. وهي ملكة خاصة

يتمتع بها كل إنسان عاقل ويصدر بها

أفعاله، بعيداً عن سيطرة الآخرين

لأنه ليس مملوكاً لأحد لا في نفسه

ولا في بلده ولا في قومه ولا في

أتمته. وهي منحة إلهية للإنسان

الذي حباه الله تعالى بكل المقومات

الأخرى اللازمة خلال مسيرته

الحياتية والتي تضمن له أداء دوره

الريادي على الأرض في أحسن

صورة.

والحرية ليست شيئاً ثانوياً في حياة

الإنسان بل حاجة ملحة وضرورة

ماسة من ضروراته، باعتبارها تعبيراً

حقيقياً عن إرادته وترجمة صادقة

لأفكاره، فبدون الحرية لا تتحقق

الإرادة، وعدم تحقيق الإرادة يعني

تكبيد الإنسان وواد كافة طموحاته

وتطلعاته، وهو ما لا ينسجم أبداً

والغاية من وجود هذا الكائن الإلهي

والدور المناط به، وبدون الحرية

لا تتحقق ذاتية الإنسان وكرامته

وقدرته على تقرير مصيره، وبدونها

أيضاً لا تتحقق سعادته.

وقد عبّر الله تعالى عن الإنسان أسمى

أ- مبدأ العبودية والخوف من الله :

تنبع أهمية العبادة من كونها الغاية

التي خلق الله الخلق لأجلها، قال

تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس

إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦) وذم

المستكبرين عنها بقوله: ﴿إن الذين

يستكبرون عن عبادتي سيدخلون

جهنم داخرين﴾ (الأنبياء: ١٩)

ونعت أهل جنته بالعبودية له، فقال

سبحانه: ﴿عينا يشرب بها عباد الله

يفجرونها تفجييراً﴾ (الإنسان: ٦)

ونعت نبيه محمداً (عليه السلام) بالعبودية

له في أكمل أحواله، فقال في

الإسراء: ﴿سبحان الذي أسرى

بعبه ليلاً﴾ (الإسراء: ١) وينظر ابن

عربي إلى الحرية على أنها «عبودية

محقة لله فلا يكون عبداً لغير الله

الذي خلقه ليعبد فوفى بما خلق له

فقيل نعم العبد أنه أواب، أي رجع

إلى العبودية التي خلق لها لأنه خلق

محتاجاً إلى كل ما في الوجود».

(الفتوحات المكية، ص ٢٢٧).

ويرى الشهيد محمد باقر الصدر رضوان

الله عليه أن الحرية في المفهوم

الإسلامي ثورة، وهي ليست ثورة

على الأغلال والقيود بشكلها

الظاهري فحسب، بل على جذورها

النفسية والفكرية، وبهذا كفل

الإسلام للإنسان أرقى وأسمى أشكال

الحرية التي ذاقها على مر التاريخ».

(من مقال للشهيد الصدر ١٤٠٤هـ،

الأضواء)

ودعا الإسلام إلى تربية النفس على

الخوف من الله تعالى، على قاعدة

أن الخوف من الله تعالى باعث على

العمل والثقة بالنفس، وأنه ليس

سمة سلبية تؤثر على اختيار الإنسان

وحريته، بل هو عامل باعث على

النشاط والحيوية والحرية، قال

الإمام الصادق (عليه السلام) لإسحاق: (خف

الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه

يراك، فإن كنت ترى أنه لا يراك فقد

تعبير من حيث حمل الرسالة

والتمتع بالحرية والاختيار، من

خلال تتويجه بالخلافة، فقد جعله

مكمل الوجود، وفوض إليه جزءاً من

خلافته، وجعله مظهراً لها، ولا بد

له من العمل على أساسها. فالحرية

في عقيدتنا تكليف وفرض، لا بد

من رعايته خلال تعامل الإنسان مع

نفسه، وخلال تعامله مع الآخرين (

الشهيد مطهري، الحرية ص: ٣٩)

٢- «الحرية» لا تعني الإطلاق من كل

قيود:

لا يعني بطبيعة الحال إقرار الإسلام

للحرية أنه أطلقها من كل قيد

وضابط، لأن الحرية بهذا الشكل

أقرب ما تكون إلى الفوضى، التي

يثيرها الهوى والشهوة. وبما أن

الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه

مدني بطبعه، يعيش بين كثير من

بني جنسه، فلم يقر لأحد بحرية

دون آخر، ولكنه أعطى كل واحد

منهم حريته كيفما كان، سواء كان

فرداً أو جماعة، ولذلك وضع قيوداً

ضرورية، تضمن حرية الجميع،

وتتمثل الضوابط التي وضعها

الإسلام في الآتي :

أ- ألا تؤدي حرية الفرد أو الجماعة إلى

تهديد سلامة النظام العام وتقويض

أركانها.

ب- ألا تفوت حقوقاً أعظم منها، وذلك

بالنظر إلى قيمتها في ذاتها ورتبتها

ونتائجها.

ج- ألا تؤدي حريته إلى الإضرار بحرية

الآخرين.

وبهذه القيود والضوابط ندرك أن الإسلام

لم يقر الحرية لفرد على حساب

الجماعة، كما لم يثبتها للجماعة

على حساب الفرد، ولكنه وازن بينهما،

فأعطى كلا منهما حقه.

٤- مقومات الحرية: ليكون الإنسان حراً

ينبغي أن ينطلق من مجموعة من

الثوابت منها:



إليه يصعد الكلم الطيب

ولا بد من مراعاة أمور أخرى في هذا المجال، مثل الصدقة، والإنفاق السري، وأن يصون لسانه عن الكذب، والغيبة، والثرثرة، وأن تكون قاعدته الصمت إلا في موارد الحجة والضرورة، وأن يتعلم الصوم المستحب، فهو من أروع العبادات الإسلامية، التي تربط الإنسان بالله - تعالى -، وتُمنّي الإرادة، وتُصعد من ملكة الصبر.

وقد ورد عن أبي الحسن علي الرضا (عليه السلام) قال: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه، وتاب إليه». (الكافي، ج ٢، ص ٤٥٣)

د- الزهد بالدنيا وعدم الخضوع للشهوات : وهنا يقول سلمان الفارسي التلميذ الكبير لمدرسة الوحي : (ثَلَاثٌ أعجبتني حتى أضحكتني : مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك بمل فيه لا يدري أسأختر رب العالمين عليه أم راض عنه) (المحجة البيضاء، ج ٨، ص ٢٤٦).

وفي الروايات الإسلامية إشارات واضحة إلى هذا المعنى حيث يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) : (مَنْ أيقن أَنَّهُ يُفَارِقُ الأَحْبَابَ وَيَسْكُنُ الشُّرَابَ وَيُوجِّهُ الحِسَابَ وَيَسْتَعْنِي عَمَّا خَلْفَ، وَيَشْتَرِ إِلَى مَا قَدَّمَ كَأَن حَرِيّاً بِقَصْرِ الأَمَلِ وَطَوَّلَ العَمَلِ) (بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٦٧). كما يجب أن يتفكر في اهتزاز الدنيا وتغيرها الدائم وعدم اعتبارها. وكذلك يتفكر في أن الحرص على جمع الأموال والثروات واكتنازها لغرض تحقيق تلك الآمال والتمنيات الواسعة في الحياة الدنيا لا يجلب له السعادة أبداً، بل يزيد شقاءً ومحنة أيضاً، وأن أفضل الطرق للوصول لهذا الهدف هو ما ورد في الحديث النبوي المعروف : (خُذْ مِنْ دُنْيَاكَ لِأَخْرَجَكَ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ، وَمِنْ صَحَّتِكَ لِسَمِّكَ، فَإِنَّكَ لَا تُدْرِي مَا أَسْمُكَ عِندَ) (بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٢٢).

خلقه ذكر الله كثيراً). تذكر الموت وحساب القبر والمراحل التي سوف يواجهها الإنسان في الحياة الآخرة، وما أعد الله للمطيعين من نعيم وما أوعده بالعاصين من عذاب، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : (إذكروا هادم اللذات) وقال الإمام علي (عليه السلام) في كتابه إلى محمد بن أبي بكر بقوله : (وكفى بالموت واعظاً) وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوصي أصحابه بذكر الموت فيقول : (أذكروا ذكر الموت، فإنه هادم اللذات...) (وسائل الشيعة، ج ٢، باب استحباب كثرة ذكر الموت). الشعور بالأمل الدائم وحتمية الانتصار : فالاعتقاد بأن الصراع الدائر بين الحق والباطل، ومعاناة الناس من الباطل وأهله، هما نوع من التمهيد الضروري والتغيير الاجتماعي تمهيداً لتحقيق وعد الله بالنصر والتمكين، قال تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور، ٥٥)، وقال تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم، ٤٧).

ج- مخالفة الأهواء والمحاسبة، والنقد الذاتي : إن كل إنسان له أهواؤه - قلت أو كثرت - وهي تتعلق بالمال، الأكل والشرب، الجاه والمركز، التحكم والسيطرة على الآخرين، إلخ.. والهدف النهائي الذي يطمح إليه المؤمن هو إلغاء هذه الأهواء من نفسه، وتطهير مشاعره، ووجدانه ودوافعه منها تطهيراً كاملاً.

أما المهمة الملحة هنا، فهي إضعاف تأثير هذه الأهواء على السلوك، والتحكم فيها، وعدم السماح لها بالسيطرة على النفس، وهذا ما ينتج من مجموعة عوامل من أهمها مخالفة الهوى. قال - تعالى - : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات، ٤٠-٤١).

كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم استترت عن المخلوقين بالمعاصي وبرزت له بها فقد جعلته في حد أهون الناظرين إليك) (بحار الأنوار، ج ٧٠). والخوف من الله تعالى نوع من الخضوع والخشية والتألم أمام عظمة الله تعالى، وهو من خصائص المؤمنين وسمات المتقين، قال الإمام علي (عليه السلام) : (الخشية من عذاب الله شيمة المتقين) (غرر الحكم ١٧٥٧).

ب- مبدأ قوة الإيمان بالله تعالى وثباته : لا شك بأن الإيمان بالله قابل للزيادة والنقصان، وهو خاضع لجملة من العوامل تؤثر عليه قوة وضعفاً، وفيما يلي عرض لجملة من الأساليب من شأنها تقوية الإيمان بالله وتعميقه، نذكر منها :

الاعتزاز الدائم بالله تعالى : قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران، ١٢٩)، وقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون، ٨). فالاعتزاز بالإيمان والانتساب إلى الإسلام ينبغي أن يشكل شعوراً مرافقاً للمؤمن أينما كان، وكيف حلت به الدنيا.

التدبر في القرآن : والقرآن يمثل كلمات الله التي تتضمن المبادئ العالية لتربية الإنسان وارتباطه بالله تعالى، قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الاسراء، ٩).

ممارسة الشعائر الإسلامية : فإنها بمثابة الغذاء للمؤمن الذي ينمي لديه قوة الإيمان بالله ويصعد بوجوده نحو الكمال الإلهي، ومن مصاديق الشعائر الإسلامية : الصلاة، الصوم، الإنفاق، الحج. قال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر، ١٠).

الذكر : ويتمثل بأنواع الدعاء وبالأضاف التهليل والتكبير والتسبيح والتمجيد، قال تعالى : ﴿لَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨). وقال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ (آل عمران، ٤١)، وعن الصادق (عليه السلام) : (... من أشد ما يفرض الله على